بطاقات الى حدة

عن فاندا فاسيلفسكا

« تعالي . كاتيا . تعالي » .

« عاجلة » ، وبأصابع محمومة ، أعدّت شريطاً جديداً . وكان شعرها غير نظيم تحت عصابتها . وقد صرف أليكس كل انتباهه الى المدفع السريع الذي كان بين يديه ، فلم يلتفت إليها .

« تعالي . كاتيا . تعالي » .

وأخذ المدفع السريع يقرقع ، ومضى الشريط يمر بسرعة من خلال علبة القذف . التقطت « كاتيا » الشريط الآخر ، ووقفت تنتظر » .

« كاتيا »

« آتيك » .

« اجتهدي واتصلي بهم مرة ثانية . اخبري السكولونيل بالموقف . أتسمعين ؟ عرفيه كل شيء » .

جَحَفَتْ إلى الداخل واندست فيه ، ووثبت الى الناحية الأخرى من المنحدر ، وأطلقت ساقيها للريح جهد ما استطاعت ، الى بيت هنالك . وأسرعت الى السرة .

« أعطني المدينة . أسرع : ٣ — ٥ » .

« انهم لا يجيبون النداء » .

« اجتهد ٣ — ٥ » .

« لا جواب » .

وانقطع الاتصال . فوقفت كاتيا حائرة تقلب يديها . أسرعت الى النافذة . سمعت قرقعة البنادق ، وطلقات متقطعة صادرة من مكان ما وراء الدغل . وبيدين مرعشتين استلمت السرة مرة ثانية .

« أيها العزيز . هنا من أورلوفكا .... تتكلم . . . . أورلوفكا . تفضل وصلني بالمدينة ٣ — ٥ » .

« لا جواب » !

« ولكن من فضلك ... أفهم . . هنا اورلوفكا تتكلم . اورلوفكا لا بد من أن اتصل بالمدينة . أي رقم في المدينة يكفي — صلني بالمدينة » .

« سأبذل جهدي ، استمعي » . نقل اليها هذه الكلمات الها .

قمت فتدحرجة كادت تتولاها . في مكان ما ، مكان بعيد قصي ، سمعت « كاتيا » صوت التحام الخطوط السلكية ، ومعها

صوت حبيب هو صوت الفتاة أمام لوحة الاتصالات تكرر باطراد :

« المدينة ... المدينة .. المدينة » .

« هالو ، أهذه أورلوشكا » ؟

« ان خط المدينة قطع ، وهم يصلحونه الآن ، عليك أن تنتظري » .

سقطت يدا « كاتيا » الى جنبيها معبرة عما أحست به من قنوط مرير .

همت خارجة من المنزل ، ومن أجل أن تصل الى الدغل ، كانت مضطرة الى الزحف على بطنها . هنالك وصلت إلى خط النار . فأدار اليكس رأسه منبهاً . « حسناً » .

« الخط مقطوع ، وهم يصلحونه » .

فصرّ بأسنانه .

« كاتيا . أنظري في أمر جريشا ، أتك أن تفعلي ؟ إني لا أسمع شيئاً من حيث هو »

زحفت إلى اليمين حتى حاذت قمة المرتفع . كان النتى حارس الحدود راقداً هناك ، ووجهه لاصق بالأرض . لمست وجنتيه المغضنتين بشفتيها في رفق ولين ، ثم وضعت يدها تحت صدره — إن قلبه قد وقف عن النبض .

« مات » — همست بذلك الى اليكس

« نعم » . وإذ همس بذلك قال — « كاتيا : قليلاً من الذخيرة » .

وظلت تعديه بما يطلب كلما احتاج إلى شيء . وكانت عيناها تمتدان دائماً إلى تلك البقعة الكائنة هنالك على الشاطىء الآخر ، على الغدير الصغير والجسر الذي يعلوه . لن هنالك ، من مسافة ما يُمكن تحديد الجسر ، كانت تنبعث ألسنة من النار ، من وراء ذلك المرج الأخضر . هنالك الألمان .

« تعالي . كاتيا . تعالي »

وقدا منسطحين إلى الأرض تخفيهما الأعشاب وتمتزج الحشائش البرية . وظل يطلق النار من غير أن يتوقف دقيقة واحدة ، ناسياً كل شيء من حوله . وكان بينهما وبين الألمان رقعة لا تزيد مسافتها على مائتي أو ثلاثمائة ياردة .

وظلت « كاتيا » تمده بأشرطة الدفع . فعلت ذلك بحركة آلية ، ومع هذه الحركة مضت تعد : لم تبق تسعة ، تسعة فقط .

« لا تعدي جريشا بعد الآن » .

وارتفعت أنّة من مكان قريب . لم يبق تسعة ، هم ثمانية الآن .

« كاتيا — جربي مرة ثانية — ربما يكون الخط قد أصلح » .

وثبت وأخذت تعدو

« أورلوشكا . هنا أورلوشكا تتكلم . كن شفيقاً ، وتفضل فصلنا بالمدينة » .

ألقت كاتيا السماع واتخذت طريقها بأسرع ما حملتها قدماها .

« اليكس . لا يمكن إصلاح الخط قبل ساعتين » .

« سوف لا نكون أحياء بعد ساعتين ياعزيزتي كاتيا » .

أمتعب أنت ؟ اذا شعرت بأنك متعب وبك ضعف ، فان الاسباب التي تتخيلها قلما تكون صحيحة . قد تتخيل انك في حاجة الى الفيتامين أو أنك مصاب بسوء الهضم أو ان عليك اضطراباً أو أن كبدك لا يفرز الصفراء . ان كثيراً من هذه الحالات لا تعود لمثل ما تخيلت من الاسباب . إذ دل البحث الطبي في ٣٠٠ شخص يشكون مثل هذه الاعراض ان ٢٠ في المئة منهم يهم أمراض جسمانية و ٨٠ في المئة ترجع متاعبهم الى اضطراب عصبي .

كثيراً ما يظن ان نقص الفيتامين سبب في احداث حالة الاجهاد البدني . ولكن الفحص الدقيق دل على ان واحداً فقط من ٣٠٠ ممن طبياً يشكون شكاً في هذه المادة الحيوية . ولم يعثر على حالة واحدة كان سوء الهضم فيها سبباً في احداث هذه الظاهرة . بل اتضح ان ما يعزى الى سوء الهضم مبالغ فيه ، وان كل الكبد بريء من ذلك . ولقد يعزو كثير من الاطباء ظاهرة الاجهاد الى اسباب غير صحيحة . ففي تقرير نشر في صحيفة نيويورك الطبية أثبت دكتور فرنك ن. أن أذني ٥ حالات من ٣٠٠ حالة كان فقر الدم سبباً في احداث حالة الاجهاد البدني ، ولم يجد حالة واحدة منها كان الصيب فيها ضغط الدم .

ان هؤلاء يستفيدون فائدة جلى اذا تحققوا أن أعصابهم هي سبب متاعبهم . فقد يشعرون باضطراب داخلي وقلق مصحوب بأعراض عصبية كانسداد الزور وتوتر الرقبة وعصوبة التنفس . ومن العجب ان أكثر المجهدين لا يعزون السبب الى أعصابهم ، ولكن مظاهرهم تنم عن حقيقتهم . فاذا شعرت بشيء من تلك الاعراض فعزها الى أعصابك ، ثم عالج نفسك بمقتضى ذلك ، ولكن بعد أن تتأكد انك لست مصاباً بمرض نوعي .

وعدتهم بسرعة سيعة ، نعم سيعة فقط .

« كاتيا . إن يدك تدمى . أعصبها بمنديل وارجعي لتنظري ماذا حل بصديقنا بلاتون » .

عصبت كاتيا يدها بسرعة وزحفت بين الاعشاب

« إنك مصاب بجرح بالغ يا بلاتون . أجدر بك أن ترجع إلى المؤخرة .

« إنه خدش لا أكثر يا كاتيا . إنه لا شيء .

« كاتيا » .

سمعت صوت زوجها يناديها فاتخذت طريقها إليه .

« إصغي يا كاتيا » .

لم يلتفت اليها البكس إذ حدثها . كانت عيناه منبهتان حيث تلك الخضرة دُوَيْن الجسر ، حيث زادت ألسن النيران عما كانت عليه .

« هل تقدرين أن تخرجي السيارة من المَظَلَّة » .

أخذت كاتيا متراجعة ، كما لو أن شخصاً ضربها على صدرها ضربة قوية .

« حيّا . أتقدرين » .

لم يلتفت اليها . كانت عيناه مركزتين في بقعة واحدة . في تلك الخضرة التي كانت تلمع منها كرات حمر .

« نعم » . أجابت بصوت مختنق .

« أأنت مصغية . كاتيا » . « نعم » .

إن الوثائق في القِمَطْر . ضعيها جميعاً في السيارة واذهبي إلى المدينة . سلميها إلى الكولونيل . أتفهمين »

« أليوشا . يا حبة قلبي . أود البقاء . اني لا أستطيع »

« كاتيا . نفذي بسرعة . أأنت فاهمة ؟ توانٍ . لحظة للكأ واحدة تفوّت الفرصة . الوثائق . كل ما في القِمَطْر . أتفهمين . كاتيا »

« نعم » .

لم يلتفت وراءه ، ليتزود بنظرة منها . وهي . كذلك هي قد قمعت رغبتها في أن تمس يده عندما ناولته شريط الطلقات .

« جهزي السيارة واذهبي بها . ادفعيها بأقصى ما في إمكانك . خذي الغدارة . أتسمعين . وتذكري يا كاتيا : سبع طلقات فقط في الخزانة ، اتركي واحدة فقط استعداداً لما يتوقع . أتفهمين » .

« نعم » .

وفي سكون زحفت نحو الدغل . ولكنه ناداها فجأة .

« كاتيا . انتظري برهة . خذي بطاقتي وخذي بطاقات الآخرين أيضاً . سلميها هناك » .

أخذت البطاقة الحمراء الصغيرة . وزحفت من واحد إلى الآخر . خمس . خمس بطاقات لا غير .

« خذي البقية من الآخرين »

فتشت جيوب القتلى . لقد جعلت عليها جميعاً . البطاقات الحمر الصغيرة .

« كاتيا : لا تنسي أن تمدّي قليلاً من البترول للطوارىء — صبّيه على كل شيء واشعلي فيه ثقاباً . والطلقة السابعة لا تنفلي عنها . والآن أسرعي يا كاتيا بقدر ما تستطيعين . . . »

التفت هذه المرة ونظر اليها . عيناه الرماديتان الحبيبتان .

« أليوشا »

« لا تبتئسي . كاتيا — لا تبتئسي » .

وشاع في وجدانها فجأة حرّ ذلك الحب العميق الغائر نحو ذلك الرجل .

« اسرعي . هذا حب صحيح يا كاتيا »

هذا حب صحيح . كررت على نفسها وزحفت بحرص ، وأطراف تلك البطاقات الحمر الدبقة تضغط على صدرها .

ثم أسرعت الى غرضها . كانت السيارة في المظلة خلف المنزل .

أدارت كاتيا الآلة ، ومن وراء ذلك الدغل سمع الذين هم كانوا هنالك هديرها .

وكذلك سمعه اليكس .

« هذا حب صحيح . هذا حب صحيح » . ومضت تكرر هذه الكلمات متمتمة بشفتين جافتين يابستين ، وكأنها في ضباب ثقيل وخرجت بالسيارة الى الطريق .

واتجهت على عجلة القيادة . وكان الطريق ممتداً مسبَّداً . ومضت السيارة تنهب الطريق وأزَّ الهواء في أذنيها .

ومرت الى جانب الأشجار الخضر والأكواخ البيض، فكأنما كانت أقباساً من الضوء الخاطف . وأخذت السيارة تطوي الطريق طيًّا ، متسارعة كلما تقدمت إلى الأمام ، وكلمات اليكس ترن في أذنيها .

« توًّا . لحظة تنكا واحدة تفوّت الفرصة » .

اضطرت عند مفترق الطرق أن تقف وتسأل عن الاتجاه . كانت جاهلة بمسالك تلك الناحية . فانها لم تزرها قبل الآن . كانت بها يوماً وليلة ، بعد أن غابت بعيداً عن اليكس ستة أشهر .

وصلت المدينة بعد جهد . أوقفها الجند وسألاها عن أمرها . فأجابت ، وارشدوها كيف تصل إلى غرضها . ولقد شعرت أن قدميها أثقل من الرصاص عند ما أخذت تصعد درج السلم ، وئيدة ، وئيدة .

كم هي عديدة تلك الدرجات . باب . بابان . ثلاثة أبواب . رجال في الملابس العسكرية وفي ثياب المدنيين ، جاءت من الناس . فانسورات بشارات خضر . وضرب قلبها سريعاً عند ما رأت تلك القنسورت التي هي شعار حراس الحدود .

صارت توًّا إلى المائدة وقالت : « القائد اليكس نازاروف أمرني بأن أوصل اليك هذه الوثائق »

وصلت الأوراق وحافظات الرسائل والصرر . فتأملها الرجل الجالس الى الناحية الأخرى من المائدة بتؤدة وثقة وقال — « والآن يجب أن تجلسي وتستريحي » .

أرادت أن تقول انها غير متعبة ، ولكن ركبتيها خانتاها ، فجلست بتثاقل على الكرسي الذي قدم اليها . كانت جاهلة بدوران البنادق واهتزاز السيارة وهدير آلتها ، كل ذا يرن في أذنيها رنيناً .

رفع الرجل الجالس اليها سماع السمّاعة « اعطني أورلوفكا »

انتظرت كاتيا

« أورلوفكا . أورلوفكا . حالاً » .

كادت أنفاسها تقف . ووقعت أصابعها على طرف المائدة بحركة عصبية وشدّت عليها وجهدت عيناها التعيستين أن تنفذا في ذلك الرجل الذي يتكلم . عملت على أن تقرأ في عينيه بصيصاً مما كان يجري في الطرف الآخر من ذلك السلك الممدود .

« هكذا . حسن » .

وأعاد السماع إلى مكانه بتؤدة .

« ماذا » ؟

فدار نحوها من وراء المائدة وأخذ يدها الملوحة بين يديه وقال :

« أورلوفكا لا تجيب » ؟

« ألم يصلح الخط بعد » ؟

وشعرت بأن أصابعها تختلج، ورجلاها تبردان ، وسرى ذلك القرّ في جميع أجزاء جثمانها .

« عزيزتي . كوني شجاعة ، ماذا في مكنتنا أن نفعل . انها الحرب . لقد الالمان في اورلوفكا » .

مرت بذاكرتها مرور الصدى البعيد ، لنغمات أغنية كانت تسمعها . من ذا الذي كان يغنيها ؟ اليكس — عياه الرمادي ، من تحت حاجبيه الأسودين — معبودي . حبيبي . اليكس .

« وأصفاً . أأترك المرج الفسيح ، والشمس في السماء ، والحب من ورائي » ؟

واستجمعت نفسها واستلهمت قواها .

« إيذن لي . إني ذاهبة الى لجنة الوحدة الاقليمية » . فدلها على الطريق .

وجدت هنالك مائدة للكتابة أيضاً ثم رجلاً من وراثها . انقبض قلبها مرة أخرى . يشبه من ممن رأت ؟ نعم هو جريشا . جريشا الصغير . أول من سقط من الرجال .

« أحضرت هذه البطاقات الخاصة بالوحدة » .

أخرجت البطاقات من تحت قميصها . عشر بطاقات حمر صغيرة .

«من أين أتيت بها . بطاقات عن رجالنا » .

وقفت كانيا ممدودة القامة بارزة الصدر وقالت بغير تلعثم أو اختلاج في صوتها :

« هي بطاقات عشر رجال . وحدة كاملة من حرس الحدود . ماتوا فخر اليوم في مراكزهم وهم يحاربون الالمان » .

نهض السكرتير . البطاقات ملقاة أمامه على المائدة . عشر بطاقات حمر صغيرة على الغطاء الأخضر ، كأنها قطرات من الدم الأحمر ، تنبيء عن مصير هؤلاء .

في حب الوطن

ولي منزل ، آليتُ أن لا أبيعَهُ ... وأن لا أرى غيري له الدهرَ مالكاً
عهدتُ به شرخَ الشباب ونعمةً ... كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالكاً
فقد ألفتْهُ النفس حتى كأنه ... طاجدٌ، إن غاب غودِرتُ هالكاً
وحبَّبَ أوطانَ الرجال إليهم ... مآربُ قضّاها الشباب هنالكاً
إذا ذكروا أوطانَهم، ذكرتهم ... عهودَ الصِّبا فيها، فحنّوا لذالكاً

ابن زيدون